نظرية المحاكاة

المعنى اللغوي:

المحاكاة في اللغة العربية هي مصدر وفعله حكي، ويُقال حكيت فلانًا أو حاكيته أي: فعلت نفس فعله، أو قلت مثل قوله، فالمحاكاة تعني المماثلة والمشابهة في الفعل والقول، وممّا ورد أيضًا عنها في القاموس المحيط أنّ كلمة المحاكاة مأخوذة من حكوت الحديث أحكوه أي نقلته، وحكيت فلانًا حاكيته أي: شابهته وفعلت فعلًا يشبه فعله، وإنّ مفهوم المحاكاة أخذه العرب عن اليونان، وكان المصطلح المستخدم سابقًا هو الحكاية، إلى أن جاء عصر المترجمين فاستخدموا المصدر الميمي المحاكاة.

وقد ورد في بعض المعاجم الأجنبية أن لفظة المحاكاة في اللغة هي مرادفة لكلمة التقليد؛ أي إعادة الشيء تمامًا كما هو، أو هي تقليد للأصل مع الحصول على التأثير نفسه، مثل تقليد النحاس الذهبي للذهب.

المعنى الاصطلاحي:

مع أنّ لفظة المحاكاة لفظة يونانية قديمة، وكان لها حضور بارز في الفلسفة والفكر إلا أن معناها الاصطلاحي تأخر حتى عُمل به، وإن لفظة المحاكاة بمعناها الاصطلاحي اتخذت حيزًا كبيرًا من دراسة المفكرين والفلاسفة، فمنهم من رأى أنها المماثلة والمشابهة، ومنهم من قال إنها نقل للواقع، وأفلاطون نظر إليها

وكأن الشعر يقف أمام مرآة ويصور الواقع، وبعض المفكرين ربط لفظة المحاكاة بالتقليد والنسخ حتى اختلط الأمر بين المحاكاة والسرقات الأدبية، وأهم ما في الأمر أنّ المحاكاة بمعناها الاصطلاحي هي: أن ينقل العمل الفني الواقع نقلًا دقيقًا يتسم بالحيوية والإبداع ويبتعد عن النسخ، وبذلك تكون المحاكاة خلّاقة ومتميزة في كل مرة

كيف ظهرت ملامح المحاكاة في الأدب؟

إذا ما عاد الدارس إلى تاريخ نظرية المحاكاة وبداية ظهورها، يُمكنه أن يضع يده على جذور نظرية المحاكاة في الأدب وكيفية تشكّلها، إذ إنّ هذه النظرية ارتبطت بالأدب من اللحظة التي قال فيها أفلاطون إنّ الشعر هو فن قائم على التقليد، أي: على المحاكاة، ومن هنا بدأ النقاد والأدباء والدارسون يهتمون بهذه الجزئية، لا سيما أنهم يميلون إلى الأدب الذي ينقل الواقع ويصوره، لأنّه يكون أكثر موثوقية وصدقًا واتصالًا بالقرّاء.

قد وضّح أفلاطون رأيه أكثر عندما بيّن أن الشعر الذي يعتمد المحاكاة هو من أكثر أنواع الشعر تأثيرًا، وبالتالي هو أكثر أنواع الشعر خطرًا، لأنه سيكون ذا أثر كبير على المتلقين، ومن هنا يتوجب مراقبته بدقة، وعن المحاكاة قال أفلاطون: "الخلق الرصين الهادئ قلما يبدي ميلًا إلى التقليد الشعري، وإن الناس الذين اعتاد الشعراء المثول

أمامهم بأشعارهم لا يقدرون التلقيد، ولا يقدرون تعب الشعراء فيه"

إنّ أفلاطون بهذه المقولة وضّح أن موضوع التقليد الشعري والمحاكاة ليس أمرًا سهلًا وبسيطًا إنما يحتاج لجهد وتعب وتفكير، لا بد أن يقدره الناس ويعترفوا بأهميته، ومن خلال هذه الأفكار التي بثّها أفلاطون بدأت بذور المحاكاة في الأدب تنضج وتزداد ثمارها مع كل دراسة وكل رأي يصدر حول مبادئها، حتلى صار للأدباء آراء متعددة ومختلفة عن المحاكاة، منها ما يوافق أفلاطون ومنها ما يخالفه وينقضه ويرد عليه.

بدايةً اختلطت في نظرية المحاكاة في الأدب بعض المفاهيم وتمازجت ولا سيما في ظل الترجمة عن اللغة اليونانية، وقد كانت في البداية نظرية المحاكاة في الأدب تُعدّ الأساسَ اللغويّ للمذهب الكلاسيكي في الشعر، ومن معانيها: نَفاذ البصيرة في الكُلّيات، لكن هذا المعنى سرعان ما تغيّر وصارت المحاكاة تعني تقليد الأدب القديم عند اليونان والرومان، ولكن أدّتْ هذه الكلاسيكية المقلدة إلى إضعاف الخيال، والحدّ من قوة الإبداع، كما أن نظرية المحاكاة في الأدب لا تُعطي اهتمامًا للشاعر، ولذلك كان من المُلاحظ في النظريّات الجديدة تركيزها على حال الشاعر ومحاولة إنصافه على أنّه جزء مهمّ في إنتاج الشعر.

كيف وضّح فلاسفة اليونان نظرتهم للمحاكاة في الأدب؟

يقومُ مفهوم المحاكاة في الأدب عند الفلاسفة اليونان على مبدأ أنّ ما في الواقع هو تقليد أو محاكاة لما هو موجود في عالم المُثُل، فالشاعر يقلّد الأشياء الموجودة حوله دون أن يعيَ طبيعتَها، وبذلك يكون شِعره هو تقليد التقليد، فهو بعيد عن الحقيقة بدرجتين، وقد طُرِحت مجموعة من الترجمات لمفهوم المحاكاة في الأدب، ولكنّ الترجمة الدقيقة لمفردة المحاكاة الإغريقية "mimesis" هي ليست التقليد"imitation" ، ولا التمثيل العقلي "representiul"، إنّما الترجمة الصحيحة هي المماثلة"simulation" ، وأبرز فلاسفة اليونان الذين تكلموا عن المحاكة هم أفلاطون وأرسطو.

المحاكاة عند أفلاطون: تقوم نظريّة المُحاكَاة في الأدب عند أفلاطون على أنّ المحاكاة هي جوهر الفن، إلّا أن المحاكاة عنده بعيدة عن الأصل بثلاث درجات، وكلما ابتعدنا درجة ازددنا بعدًا عن الحقيقة، ولذلك أصبح الشعراء عند أفلاطون وبناءً على رأيه كِذبة، ومن غير المسموح أن يكونوا في جمهوريّته الفاضلة، وبالإضافة إلى ذلك ينبغي طردهم من تلك الجمهورية؛ حتى لا يُفسِدوا على الناس سعادتهم الحقيقيّة.

المثال على ذلك أنّ الشاعر أو الرّسام إذا أراد أن يصوّر سريرًا، فإنّه سيُحاكي السريرَ الذي صنعه النّجار، والنجار نفسه الذي صنعَ ذلك السرير ليس مبدعًا، إنّما هو مُحاكٍ للسرير الحقيقيّ، وهذا السرير الحقيقي موجود في

عالم الْمُثُل، عالم لا نراه، وبالتالي فإنّ السرير غير موجود حقيقةً إلا في عالم المثل، وبذلك يكون عالم المُثل هو الدرجة الأولى للحقيقة، وعالم النجار هو محاكاة لعالم المثُل، أيْ: صار في الدرجة الثانية، وهنا تبتعد الحقيقة عن الأصل شيئًا فشيئًا، ويكون عمل الشاعر أو الرّسام محاكاة للمحاكاة، فيبتعد بذلك عن الأصل بثلاث درجات.

مع أن أفلاطون وضع أسس نظرية المحاكاة في الأدب من خلال فلسفته، إلا أنه لا يرى أن ما يقوم به الشعراء في محاكاتهم للواقع إبداعًا خالصًا، بل جعل الصانع أو النجار يسبق الشاعر بمرتبة في محاكاته للواقع، وقد كانت آراء أفلاطون تتمركز حول سؤالين هما: ما جوهر الفن الشعري؟ وما وظيفته في الحياة الإنسانية؟

المحاكاة عند أرسطو: جاء أرسطو وورثَ مصطلح المحاكاة في الأدب عن أستاذِه أفلاطون، ولكنّه أعطاه معنًى مختلفًا، وكان هذا الاختلاف نتيجةً لاختلاف النظرة الفلسفيّة، إذ كان أفلاطون ذا نزعة صوفية غائية، بينما كان أرسطو ذا نزعةٍ علمية تجريبية، ومع أنّ أرسطو كان يرى أن الفنّ محاكاة، إلا أنّه لم يربط نظرية المحاكاة بنظرية المُثل الأفلاطونيّة، ولم يقيّد الفن أو الأدب بقيود الفلسفة.

أرسطو ينظر إلى الشعر على أنّه محاكاة للطبيعة، ولكنّ الطبيعة ليست محاكاة لعالم عقلي، والشاعر عندما يُحاكي الطبيعة فهو

يحاكي ما يمكن أن يكون لا ما هو كائن، وبناء على مفهوم المحاكاة في الأدب عند أرسطو تُرجَع الفنون كافّة ومنها الشعر إلى أصلٍ فلسفيّ واحد هو محاكاة الحياة الطبيعيّة، أرسطو يعيد الشعر إلى غريزتين إنسانيتين هما: غريزة التقليد، وغريزة التناغم والإيقاع والأوزان.

المرجع: نظرية المحاكاة في الأدب؛ إسراء أبو رنة، 2021/04/25 . www.sotor.com